

الشيخ الخالدي

للدكتور عبد الوهاب عزام

لقيت في الآستانة منذ خمس سنين شيخاً جليلاً ينقب عن الكتب ، ويتحدث عن نوادرها ، وعرفت أنه الشيخ خليل الخالدي رئيس محكمة الاستئناف الشرعية في القدس ثم شرفت بلقائه في مصر مرات . كان كلما قدم القاهرة تفضل بفرارفي في الجامعة . تقابلنا مررة فتكلم عن الكتب والمؤلفين كلام خبير بحاجة . غرست على لقائه والأفادة منه فراغني علم لا ينفد ، وحفظ لا يحطى .

يبدأ حديثه عن الكتب ، فيذكر أنه رأى كتاب كذا في مكتبة كذا ، ويصف النسخة وما عليها من سماع العلماء ، ثم يتكلم عن قيمة الكتاب ومكانته بين أشباهه ، ويذكر المؤلف فيبين عن تاريخه ومكانته من العلم ، ودرجته بين العلماء ، وهلم جرا ، يقضى من حديثي إلى حديث ، والسامع فرح بما يسمع ، معجب متعجب . وقد زار مكاتب الآستانة والأناطول وقينا والشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس ، ونقب فيها عن نقائس الكتب ، فأحاطت عالم يحيط به سواء . والشيخ حفظه الله منقطع النظر في هذا الموضوع ما رأيت ولا سمعت بمثله .

وهو من أسرة الخالدي إحدى أسر الشام العظيمة ، تنسب إلى سيدنا خالد بن الوليد . وهي معروفة في التاريخ بأسرة الدرر ، وفيها العلماء والقضاة في الشام ومصر منذ خمسمائة وخمسين سنة والشيخ زريل القاهرة الآن . وقد أسعدني الجدل بلقائه مرات في شعبان ورمضان هنا . وأرجو أن أسعد أنا وأصدقائي بحديثه مرات أخرى قبل رجوعه إلى فلسطين .

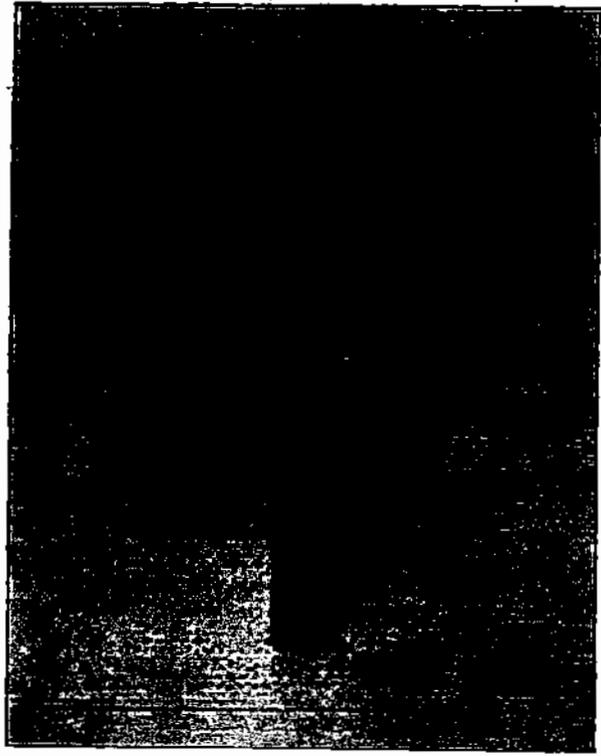
وقد حرصت أن أكتب عن الشيخ بعض أحاديثه دون أن أشمره بذلك ، فلما اجتمعنا في حلوان ليلة السبت ثامن رمضان ، سأله بعض الحاضرين سؤالاً فشرع في حديثه ، فدوت بعض ما قاله إجمالاً ، ثم عدت إليه بعد انفضاض المجلس ففصلته على قدر ماوعيت . وإني أقدم للقارىء هنا ما حفظته عن الشيخ العلامة في ذلك المجلس :

والفكرون يتبواون أرفع مكانة وتصدق عليهم المنح والهبات الوفيرة لكي يفتح نبوغهم ويستطيعون العمل في دعة وسكينة ؛ وكان الخلفاء والسلاطين يأخذون بأعظم قسط في تشجيع الحركات الأدبية ، وكان من بواعث الفخر أن يكون القصر أو العاصمة ملاذاً لأكبر عدد من الكتاب والشعراء ؛ وكان من زينة المعمر والدولة دائماً أن تزدهر الحركات الفكرية في ظل الرعاية الرسمية ؛ وهاهو ذا الأزهر لم يعاونه على الحياة حتى عصرنا سوى التفات السلاطين إليه وتمهد علمائه وطلبته بالبدل والعون . ولم يكن الملقى ، دائماً ، كما هو الشأن في أيامنا نحن هذه الرعاية . ذلك أن رعاية العلم والعلماء في تلك العصور كانت تعتبر من واجبات الدولة القوية المستنيرة ، وكان العلماء يعملون في ظل هذه الرعاية مستقلين في الغالب ، ولم يكن يطلب اليهم دائماً أن يكونوا أذناناً أو دعاة للأمر أو الحكومات التي تشملهم برعاية يعتبرونها حقاً دائماً لهم يجب تأديته اليهم .

ومن الميث أن ندعى أن الحكومات والميئات الرسمية المصرية المختلفة قد استطاعت أن تؤدي هذا الواجب العام أو بعضه نحو رعاية الحركات الفكرية في عصرنا . والحركة الفكرية لم تقف شيئاً من تلك الدعايات الواسعة التي تذاع حولها ، وتلك المنشآت المقيمة التي تقام باسمها ، والتي يتراد أن تكون هياكل فقط تعجد العصر وتنسب إليه ؛ وما تخشاه هو أن الجهات الرسمية ما زالت بعيدة عن تقدير هذا الواجب ، بعيدة عن تأديته . إن النبوغ في مضر ما زال يعني الفقر والبؤس ، إذا لم يوفق من تلقاء نفسه إلى الخروج من غمرة الظلمات والصماب التي ينشأ فيها ؛ بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك ، هو أن النبوغ يعتبر في مصر أحياناً خطأً يخشى منه ويجب اتقاؤه ؛ وعندئذ يشتري لا ليعضد ويزدهر ، بل لنكي 'يسكت ويقتبر . أما أغنياؤنا فلن نطع أن نجد بينهم واحداً يقدر واجباً لا تقدره الحكومة ؛ ومن المحال أن يروا مثلهم الأعلى في رجال كالفردي زويل يرون ذكر الإنسانية في صون التفكير الإنساني ، والارتفاع به إلى ذرى التقدير والاحلال ما

محمد عبد الله عتاه
الهامي

سأل أحد الحاضرين عن المدارس ذات المكانة في التاريخ الإسلامي فقال : المدارس النظامية كانت في بغداد والموصل ، وأسفهان ونيساپور ، ومرو وهرات ، وكان في نيسابور ثلاث المدارس : منها المدرسة البيهقية . ومدرسة ضياء الدين في سمرقند ، وكان يقيم بها صاحب الهداية وشيخ الدين الكردلي صاحب مناقب أبي حنيفة ، ومدرسة الأمير مسعود في بخارى ، ومدرسة قطنغ تيمور في خورزام ، وهذه البلاد التي ذكرت كانت من مراكز العلم ، ومثلها بخارى وبلخ وفرغانة وچرجان ، وكان بخارى من معاهد العلم مسجد كوكلتاش ومسجد كلام ، ومن



الشيخ خليل الخالدي في قصر بني عباد بأشبيلية سنة ١٣٥١ هـ

رجال مرو : القفال الكبير والقفال الصغير ، ومشايخ امام الحرمين والبغوي ، والسماعني ، وابن حنبل . وكان بدمشق مدارس كثيرة ، منها العمريّة التي أنشأها أبو عمر بن قدامة . وهو أخو الموفق أخو قدامة صاحب كتاب الفتن في مذهب الحنابلة ، وهو اثنا عشر مجلداً . ومنها المدرسة الضيائية ، وكان بها خطوط المحدثين كلهم . وهي منسوبة الى ضياء الدين المقدسي ابن أخت أبي عمر بن قدامة . وقد يخرج فيها ابن تيمية والذهبي ، ومن مدارس دمشق دار الحديث الأشرفية ، وهي دار المتحف

العربي الآن . وقد درّس بها النووي وابن الصلاح وأبو شامة ، والمدرسة العادلية ، وقد درس بها ابن مالك وابن خلكان ، والمدرسة الرواحية التي تخرج فيها النووي ، وصارت الآن من دور آل الغزي . والمدرسة التي درس بها ابن القيم ، وهي بقرب بيت العظم . وكانت بيوت العلم في الشام بنى قدامة ، وبنى تيمية ، وبنى عساكر ، وبنى عبد الهادي ، وهؤلاء من مشايخ الذهبي

ثم انتقل الحديث الى الفخر الرازي ، فقال في أثناء كلامه : إن الرازي من بنى أبي بكر الصديق ، فتمجيب الحاضرون ، فقال : ومن ذرية الصديق أيضاً جلال الدين الداوودي ، وعضد الدين صاحب العقائد ، وأبو اسحق الشيرازي ، والفيروز آبادي ، قلت وجلال الدين الرومي . قال : نعم وجلال الدين ، وأبن جلال الدين من هؤلاء ، قلت : لكل وجهة ، ثم سئل الشيخ عن بنى عمر بن الخطاب في العلماء فقال : منهم السهرورديون من المتصوفة ، ومنهم القنبري . وكان في بخارى جماعة منهم . وكان تيمورلنك يجلّهم كل الأجلال ، قال : وصدر الشريعة من بنى عبادة ابن الصامت ، وليس كل من نشأ في بلاد الفرس فارسياً ، فأبو داود السجستاني ، والترمذي صاحب الثمائل ، والترمذي صاحب الليند ، وابن عبد البر ، كل هؤلاء من العرب ، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري من بنى ضبة ، ومسلم بن الحجاج صاحب الصحيح ، وأبو القاسم صاحب الرسالة القشيرية من بنى قشير ، والمازري ، وابن يونس العقلي ، وعبد الحق الصقلي الذي غلب إمام الحرمين في المناظرة ، من بنى تميم ، واقاضي عياض من محصب

ثم ساقه الحديث الى القطب الشيرازي العلامة المطلق ، ونفخر الإسلام البزدوي وصدر الشريعة فأفاض في الحديث . وقال : لفخر الإسلام البزدوي كتاب في الأصول منقطع النظر ، حدثت شمس الدين الأصفهاني شارح الطوالع أنه دخل على أستاذه القطب الشيرازي فوأي عنده كواسيت علي وسادة ، فقال ما هذه ؟ قال : إني منذ سنة كتبها أقرأ كتاب البزدوي ، وأتقل عنه وما أنهيته . ولصدر الشريعة كتاب تعديل العلوم في المنطق والحكمة والكلام والتصوف والأخلاق . رأيت منه نسخاً كثيرة . وله كتاب التفتيح وشرحه التوضيح

سأل سائل لماذا قلّ أمثال هؤلاء العلماء بين المسلمين اليوم ؟ قال لذلك أسباب : منها أن أسلافنا كانوا يطلبون العلم للعلم لا يبتغون من وراءه شهادة ولا منصباً ؛ كان كل منهم يتخذ عملاً يعيش منه ثم يحصل العلم عن جهابذته . ولم تكن أساليب التعليم صناعية آلية كنظام المدارس في الوقت الحاضر ؛ ومن الأسباب انقطاع الرحلة ، كان سلفنا يشدون الرجال في طلب العلم لا يفترون ، فيلقى بعضهم بعضاً ، ويأخذ بعضهم عن بعض . الخ . انظر إلى قضاء السلف كيف كانوا يفترون من القضاء إشفاقاً على دينهم ؟ هذا أبو علي الصدقي أحد قضاة الأندلس ذبح الذبائح وحبس شكر الله على خلاصه من القضاء . ومن القضاة الأباة عطاء النفس ، أهل التقوى أبو بكر بن السليم القاضي الأندلسي ، وله رأى في الفقه معروف : « أن الانسان إذا اشترى بيتاً فوجد به بقاً فله خيار العيب » ومنهم ابن زر القاضي ، وكان في عهد المنصور بن أبي عامر . وحسبك بقاض يتعاطم على مثل المنصور . وله كتاب الخصال الكبير والخصال الصغير في مذهب مالك ، رأيتهما في مجريط . وقد قيل إن من قرأ الخصال استغنى به عن الكتب الأخرى ، وكان الأندلسيون ذوى همة عظيمة في تحصيل العلم ؛ كان طلابهم يبدؤون بحفظ التسهيل لابن مالك ، ومختصرى ابن الحاجب في الفقه والأصول ، هذا عند التأخرين . وأما من قبلهم فكانوا يحفظون الموطأ ، ومن قبل هؤلاء كانوا يحفظون تهذيب المدونة ، وسلفهم كانوا يحفظون المدونة ، وكان ابن بشكوال يحفظها كلها ، وكان الرازى يحفظ كتاب الشامل لأمام الحرمين ، وهو مجلدان في علم الكلام . وأرى أن تفوق الأندلسيين كان من عنايتهم بأهيات الكتب . كانوا يقرأون في النحو كتاب سيويه ، وأين من كتاب سيويه كتاب الأشموني وحاشية الصبان ؟ وقد رأيت في مكتبة الأسكوريال خط أبي علي الشلوين على كتاب سيويه يمدد الكتب التي قرأها في النحو وكلها من الأهيات . ورأيت في مكتبة كورنيلي بالآستانة اجازة قاضيخان كتبها بخطه على السير الكبير للرخسى وعدد الكتب التي دزمتها في الفقه . وهي كتب تضمن لقارئها التفقه . أنظر ! أهل الأزهر يقرأون في الأصول جمع الجوامع ، وليس هو من كتب الأصول القيمة . — قال بعض الحاضرين : قرأوا كتاب الأمدى في عهد الشيخ المراغى ثم أبطلوه ، فقال كتاب الأمدى جيد ، وللأمدى كتابان : إحكام

الأحكام ، وأبكار الأفكار . وكتاب ابن الحاجب في الأصول مأخوذ من منتهى السؤل والأمل للأرموى ، وهذا مأخوذ من كتاب الأمدى ، والأمدى أخذ من الأدلة القواعط للسماعى ، وهذا مأخوذ من كتاب الباقلانى ، فهذا الأصل الذى لم يؤخذ من غيره . ثم تكلم عن أصول الحنفية وعلمائهم وكتبهم وطريقتهم ، ورجع الى الباقلانى فقال : وكان الباقلانى آية من آيات الله . وقد روى أبو الوليد الباجى أنه كان يسير مع الدارقطنى — والدارقطنى من كبار المحدثين ، في درجة الترمذى وابن ماجه — فلقيا رجلاً ، فأعظمه الدارقطنى غاية الأعظام وقبّله ، فقال أبو الوليد : من هذا ؟ قال : سيف أهل السنة أبو بكر بن الطيب ، يعنى الباقلانى ، وقد رثاه بعض الناس فقال :

انظر الى جبل تسمى الرجال به وانظر الى القبر ما يحوى من الصلف وانظر الى صارم الاسلام منعمداً وانظر الى درة الاسلام فى الصدق وكان الباقلانى يناظر ابن العلم فيفحمه . وكان ابن العلم يوماً في أصحابه فأقبل الباقلانى ، فقال ابن العلم : جاءكم الشيطان ، فسمعهما الباقلانى فتلا قوله تعالى : ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزواً . وتناظرا مرّة ، فلما أنعم ابن العلم أخرج قبضة من الباقلانى ورماها في وجه الباقلانى ، يعنى بذلك أنه ابن بائع بائع . فأخرج الباقلانى درّة من ثيابه ورمى بها ابن العلم يعنى أنه ابن معلم صبيان ، فتمجّب وقال : ما أخبرت أحداً أنى سأرميه بالباقلانى ، فكيف أعدت لي هذه الدرّة ؟ — وعقائد الدوائى مأخوذة من عيون السائل ، وهذه مأخوذة من ردوس السائل ، وكلاهما للجرجاني ، وردوس السائل مأخوذة من جواهر الكلام لعصم الدين صاحب المواقف ، والجواهر من المواقف ، والمواقف مأخوذة من أبكار الأفكار للأمدى ، وهذه عن الباقلانى ، وهذا كما ترى في فقه المالكية : كتاب أقرب المسالك للشيخ الدردير مأخوذ من كتاب خليل ، وهذا عن كتاب ابن الحاجب عن تهذيب البرادعى عن المدونة . وقد رأيت نسخة من المدونة في مكتبة القرويين في فاس بخط عبد الملك بن مسرة شيخ ابن رشد ، وهي في ثمانين مجلداً صغيراً ، وكتب في نهايتها :

بالله يا قارىء استغفر لى كتبك فقد كفتك يده النسخ والتعب
كتبه عبد الملك بن مسرة اليحصبي
وقد ذكر ابن مسرة ابن فرحون فى كتاب الديباج وهو من